(4) الضبي أحمد بن يحيى: بغية الملتمس – مجريط 1884، ص 131.
(5) ارجع الى محمود اسماعيل قضايا في التاريخ ، ص 92 وما بعدها.
(6) الرقيق: ص 109.
(7) ابن خلدون: م 6 ص 239_240.
(8) المصدر نفسه، ص 220_221.
(9) لواب بن سلام: الاسلام وتاريخه ، دار اقرأ بيروت ، 1986، ص 150.
(10) ابن عذارى، ج 1، ص 52.
(11) Gautier, p. 275.
(12) Gautier, p. 271.
(13) ابن سلام، ص 154.
(14) ابن خلدون، م 6، ص 220_229.
(15) سعيدوني ناصر الدين – نحو نظرة جديدة لتاريخنا الجزائري، مجلة الثقافة عدد 24، الجزائر 1984، ص 46.
(16) محمود اسماعيل – الحركات السرية في الاسلام، بيروت 1973م، ص 195.
(17) انظر مثلا حسين مؤنس: ثورات البربر – المقال المذكور آنفا.
(18) يوافق بعض الباحثين العرب المحدثين ما ذهب اليه جوتييه في هذه القضية أنظر حسين مؤنس: ثورات البربر ومحمد بن عميرة: دور زناته في الحركة المذهبية بالمغرب الاسلامي، الجزائر 1984، ص 91.
(19) انظر مثلا محمود اسماعيل: قضايا في التاريخ الاسلامي ص 104، 106، 116، 122، 129، 136. حسين مؤنس: ثورات البربر، رفعت فوزي عبد المطلب: الخلافة والخوارج في المغرب العربي – القاهرة 1973، خاصة صفحة 196. 197 مصطفى أبو ضيف: القبائل العربية في المغرب. الجزائر 1983 م ص 41 وما بعدها، وغيرها من المراجع العربية الحديثة.
(20) البكري أبو عبيد : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب . الجزائر 1857 م ص 100 وما بعدها ص 134 وما بعدها.
(21) الرقيق تاريخ. ص 108. ابن عذارى البيان ج 1 ص 51. ابن الأثير: الكامل. ج 4 ص 222.
(22) يذكر ابن خلدون أن البربر ارتدوا عن الاسلام اثنتي عشر مرة. العبر. م 6. ص 205.
(23) أحمد بن ابراهيم الشريف: دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة. مصر 1968. ص 137_149.
(24) محمود اسماعيل: قضايا في التاريخ الاسلامي: ص 105.

موقف المؤرخين الفرنسيين من الجزائر في العهد العثماني

مولاي بالحميسي

كانت الجزائر منذ أن ألحقت بالمملكة العثمانية سنة 1518 م، موضوع اهتمام بالغ ودراسات متواصلة وأبحاث مختلفة من طرف الفرنسيين ، ولم يحظ قطر من أقطار شمال افريقيا بما حظيت به الجزائر من إنتاج أدبي وتاريخي وعسكري[1].

ويعود السبب في ذلك الى ما أثاره نظام البلاد الجديد في العالم المسيحي من حيرة وما لفته من أنظار لدى الساسة والقادة ورجال الكنيسة والمسؤولين على البحريات. فلا غرابة إن تعددت التآليف وتنوّعت حتى ملأت الخزائن.

لقد خرج المغرب الأوسط في أوائل السادس عشر من عزلة أنهكته وتقوقع أنسى الناس في وجوده وما هي الا سنوات معدودة حتى تحوّل الى دولة ذات حدود مرسومة وعاصمة حصينة وجيوش عديدة وبحرية ناشطة أكسبتها وزناً دوليا مرموقا وذات نظم سياسة جديدة بالنسبة لما كان مألوفا في أوروبا ويضاف الى هذا كله أن الحكم الجديد تحدّى بنجاح الدول المسيحية التي اضطرت الى محاربته أو مهادنته أو شراء محالفته[2].

وكلما زاد نفوذ الجزائر على الساحة الدولية، أو في دائرة الأبيض المتوسط كلما تحول اهتمام الغربيين الى تخوف أو الى سخط كانا أقوى دافع الى تتبع كل ما يحدث في

بلادنا ليصبح موضوع دراسة وتحليل ، علّهم يجدون الثغرات لشن الغارات...

وينقسم موقف المؤرخين والكتاب الفرنسيين الى قسمين من حيث الأهداف:

أ ـ ما ألّف قبل 1830. لقد وجدت الأقلام في تلك الفترة ، المادة الخام في تقارير القناصل المقيمين بالجزائر ومكاتبات الجواسيس ومذكرات الرهبان ورسوم التجارة وتصريحات الأسرى وتقاييد الرحالين فتعرضت لجانب من جوانب تاريخنا الحديث ومن طالع هذا الأنتاج الضخم وأمعن فيه النظر تجلت له النقائص العديدة والسلبيات الكثيرة:

1 ـ فإن النزعة السائدة هي الكراهية للجزائر، وقد ملأ كتبهم الجو المعادي والموقف المعاكس لكثرة الأزمات وتوتر العلاقات بين الجزائر ومعظم الأمم الغربية أدت الى حروب ضارية حتى أصبح العصر عصر عِداءٍ وحقد ووعيد وتهديد صُبَّ في كتب الأدب والتاريخ ودبّت السموم في صفحاتها والمرارة بين سطورها فتراكمت الأفكار المسبقة والنوايا المغرضة ومال أصحابها الى الشتم والازدراء والاستفزاز والاحتقار. فالعاصمة في مؤلفاتهم «حجر اللصوص وعش الصعاليك وجحيم النصارى وجمهورية قطاع الطرق» ومثل هذا كثير جدا[3]. وحكام البلاد «غيلان إفريقيا» وهم أهل استبداد. معدومو الأخلاق . همّهم الوحيد هو طلب اللذة ونهب الأموال. وأمّا رُيَّاس البحر وعُظماء البحرية فإحصاء عبارات الطعن فيهم وسبّهم يتعذّر... فهم المتعطشون للدماء وهم رعاع القوم وحُثالة الأتراك وهم القراصين الناهبون وهم ... وهم.. وفات هؤلاء المؤرخين ان الحثالة في أوروبا كانت تصل الى أعلى المناصب وأخطرها. فهذا الشوفالييه پول (Paul) لم يكن سوى ابن غسّالة بمدينة مارسيليا قد وُلد على متن زورق وعندما كبر واشتهر بمحاربته للمسلمين عُيّن بعد 1638 قائدا للأسطول. وهذا ميشال ناي (Ney) كان صانع البراميل قبل أن يسمي مارشال فرنسا بعد ثورة 1789. وهذا الاسباني بارسيلو (Barcello) اشتهر بالقرصنة والفتك والتعدّي قبل أن يُعيّن أميرالا على الأسطول الاسباني.

وتفنّن هؤلاء المؤرخون في وصم الجزائريين وقالوا إنهم سرب من النسور الجائعة والسّوقة الشنيعة ، غريزتهم النهب الطمع[4]. أما قراصنتهم أمثال جان بار (Jean Bart) ودوكاس (Ducasse) وغيرهما ومثل الانكليزي دراك (Franck Drak) الذين سلطوا الضربات على سكان البرازيل والرأس الأخضر فهم أهلٌ للتمجيد والتعظيم والإكرام. فهم أبطال تغنّى بأعمالهم الشعراء وخلّد ذكراهم النحاتون وقالت الكنيسة إنهم جنود الله وأنصار المثل العليا ومليشيا المسيح...

ولهذا التحيّز الأعمى ما يفسره. فالصرّاع الديني قائم ورجال الكنيسة يملون ما يريدون ومصادر المؤرخين رُهبان غلاة أو أسرى حرب في حاجة الى شهرة أو ضباط يحلمون بترقية أو قناصل عُرفوا بالطيش. وهكذا أُطلق العنان للأقلام حتى تستطيع أوروبا أن تجنّد طاقاتها بعد أن ملأ الرعب قلبها وتنقض على زعيمة المقاومة الإسلامية في الحوض الغربي من الأبيض المتوسط وكان المؤرخون ينظرون الى إيالة الجزائر وكأنها منبع الأخطار ومصدر كل شرّ وموطن الأمراض:

كان الأميرال الانكليزي اكسموث (Exmouth) قائد حملة 1816 على مدينة الجزائر يقول متحدّثا عن جنوده : «المحاربون من أجل قضية المسيحية النبيلة» واذا تحدث عن الجزائريين قال: «حشد من المتعصبين»[5].

وهكذا كان الجو في أوروبة عامة وفي فرنسا خاصة: بعض الجزائر بلادا وعباداً (L'Algérophobie).

2 ـ ورغم تتبع كل ما كان يجري في بلادنا فيُلاحظ سكوت عن أشياء هي من الأهمية بمكان او الاكتفاء بالإشارة الخفيفة مع الميل الدائم الى التشويه.

لقد أغارت فرنسا مراراً على الجزائر وانهزمت في كل مرة[6]. وأغارت غيرها من الدول عدة مرات وآلت المحاولات بالفشل[7]، فلم ترد في كتب الفرنسيين الا كلمات موجزة في شأن هزائم المغيرين واكتفى أصحابها بالتلخيص الجاف والتحليل الغير العلمي. ومن المضحك تفسيرهم لاسباب الفشل ، فلا يعيدون نصر المسلمين

على النصارى لشجاعتهم واستعدادهم ومقاومتهم بل لهيجان البحر... وسكون الرياح... وانتشار الأوبئة أو غضب الربّ على ما ارتكبه المسيحيون من أخطاء وذنوب والى السحر الذي يلجأ اليه الجزائريون في مثل هاته الظروف الى تحالف هؤلاء مع العفاريت..

كما سكت هؤلاء المؤرخون على ما كانت ملوك أوروبا وأمراؤها وعظماؤها تقدمه من إتاوات وهدايا لكسب صوت الجزائر والحصول على حيادها في النزاعات الناشبة بين دول الغرب ولم يفتحوا ملفات عديدة منها مأساة الأسرى المسلمين ، وسلّطت كتبهم الأضواء على العاصمة دون غيرها. فوصفوها حيّاً حيّاً ونهجا نهجا، ووقفوا عند هندستها وبينوا عُمرانها ونشاط مرساها ورواج تجارتها ، غير أنهم اقتصروا على المدينة وضواحيها في غالب الأحيان، وأهملوا البقية وتمخض عن هذا الاختيار تكرار مملّ وإعادة روتينية حتى ان من طالع كتبا كثيرة لا يشعر بفرق أو جديد. فالروايات والأفكار والأمثلة والطريقة شياع بينهم وأمر مشترك، وان اختلفت العناوين وذلك أن الدوافع بقيت هي هي والأهداف لم تتغير والمواقف لم تتطور ويجد القارئ ذلك الحماس الديني وذلك الاحتقار المطلق لكل ما يخالف أذواقهم وميولهم ومصالحهم وتصورّهم كما يجد القارئ ذلك الحلم الذي راود الكثير من المؤرخين وهو إزالة الجزائر من المعمورة أو على الأقل انهاكها واذلالها. وقليلون هم الذين حاولوا الاجتهاد والابتكار وفكّروا في التحرر من القول المُعاد والأسلوب المألوف والصور الموروثة ولذا لا نجد الاستقلال في الحكم والجرأة في تحدي التيار السائد آنذاك إلا قليلا.

وقد لاحظ دي غرامون (De Grammont) على سابقيه من مؤرخي الجزائر (وعلى من عاصروه) أنهم اكتفوا بالنقل عن بعضهم بعضا «يبلّغ هذا ذاك أقوال أولهم الذي بصفته اسبانيا حكم بقساوة شديدة على تصرفات الباربار يسك متجاهلا أن مواطنيه كانوا سبّاقين لمثل هته الأعمال على شواطئ المغرب»[9].

ب ـ الفترة بعد 1830.

ما أن تم الاحتلال حتى أقبلت جماعة كبيرة على دراسة تاريخ البلاد منذ أقدم

العصور فتهاطلت الدراسات تهاطل الأمطار غير أن الكم غير الكيف!

وسواء أكانت البحوث مقصورة على موضوع أو تاريخا عاما فقد كان لهؤلاء السادة حساب مع الترك حاولوا أن يصفّوه ومهمة سارعوا للقيام بها.

ففي التاريخ العام جنى على الفترة العثمانية الإيجاز. ورغم ان الحقبة طويلة والحوادث هامة داخل البلاد وخارجها ورغم التغييرات الجذرية والنظم الجديدة والعلاقات الخارجية المتواصلة مع أوروبا، فقد تميزت الدراسات بالسطحية وعدم الاكتراث[10]. صفحات معدودة بين المئات. يحتوي كتاب ڤالبير على 630 صفحة ولكن 70 فقط خصّت للعهد العثماني واكتفى البيرتيني بـ 11 صفحة من بين 375

ونتج عن هذا التلخيص بل هذا الطمس عدم التوازن بين الفترات التاريخية فحظيت اثنتان بالعناية الكاملة والبحث المفصل، وهما العهد الروماني والعهد الفرنسي، وعانت اثنتان من الأهمال حتى اختنقتا بين الروماني والاستعماري[11].

أما المحتوى ـ مع قلّته ـ فيدور الكلام فيه على الأقلية الحاكمة وعلى تعسف الحكام وانتشار الجهل والمرض والفقر. فلا حديث عن مواضيع أخرى مثل الطبقات الاجتماعية ، أو الحياة الاقتصادية أو الثقافية أو العمران أو التجارة أو الصناعة الا ما ورد عرضا[12]

وميزة هذا الانتاج هو ذلك الميل المتواجد عند معظم مؤرخي القرنين التاسع عشر والعشرين والمتمثل في لتركيز على العنف والحروب الداخلية والحوادث الدامية والثورات المحلية وعلى الانقلابات والاغتيالات والمؤامرات والفتن والزوابع السياسية وعدم الاستقرار وفقدان الأمن وكأن الجزائر كانت قائمة على بركان أو في طريق عواصف. فهذا داي يُقتل وذاك يُخنق وثالث يُسلخ وهذا باي يُصادر وآخر يُعذّب بسبب ما جمع من المال وهذه طائفة تنقض على طائفة. فلا مجال في مؤلفاتهم لأيّام كانت مشرقة ولا لعهد كان زاهرا، ولا ترجمة لعظيم ساس وقاد موفقا[13]. وكأن البلاد لم تُرزق قط شخصيات سمت بالمواهب والحكمة والحزم وحُسن التدبير الى أعلى الدرجات. ولم يقدم الفرنسيون على الدراسة الموضوعية لهيمنة الجزائر على الأبيض

المتوسط ولا للمنافسة البريطانية الفرنسية لكسب قادة الجزائر ومسالمة البحرية.

وشاع المنهج بين الكتّاب حتى أصبح أقبح عيب وأخطر مرض [14] إذ دبت في الكتب التاريخية حكايات واهية وخرافات مزرية وأحاج صبيانية واعتقد أصحابها أنها التاريخ ! فهذه قصة طبّاخ متواضع أمسى باشا البلاد وهذه حكاية عاطفية لفتاة أوروبية جيء بها للجزائر فتزوجها الدّاي!

وإذا كان الهدف من كتب التاريخ قبل 1830 يرمي الى إثارة سخط الأوروبيين على الجزائر، واشعال نار الحقد واعداد جوّ الحروب الصليبية وإرسال السفن لقصف العاصمة، فإن الغرض بعد النكبة الكبرى كان الحطّ من شأن الأتراك والطعن في نظمهم والفتك بسمعتهم وجاههم ومحو كلّ ما تبقى لهم من آثار وما قام من اعتبار.

فإن كانت المدرسة الأولى مهدت الاحتلال فإن الثانية برّرت الغزو الفرنسي وحوّلته الى ضرورة لإنقاذ الأهالي التعساء من مخالب الطغاة والدفع بهم الى فردوس الحضارة وجنة التقدم وتحويل البؤساء الى سُعداء.

ورغم ما توفر لدى هته الفِئة من المؤرخين من مصادر عديدة ومتنوعة فإنهم اتخذوا موقفا وبقوا متمسكين به:

1 ـ استغلال ما يخدم مصالحهم من المصادر وما يحقق له الغاية ثم تجاهلوا كل ما يعاكس ذلك أو هو في صالح الفترة المذكورة ورجالها وما أكثر الوثائق في دور الأرشيف والتي لو استخدمت لوصلتنا كتب تاريخ غير ما تركه لنا الفرنسيون ولتمتعنا بمؤلفات خالية من التعصّب والحشو والهذيان والتحيُّز...

وأكبر خطأ ارتكبه هؤلاء الكتّاب احتقارهم المصادر الإسلامية العربية منها والعثمانية بدعوى أنها غير مجدية أو في حاجة الى الدقة أو أنها تفسح المجال واسعا للافتراض».

وتركوا النصوص التاريخية والجغرافية والأدبية العربية لعجزهم على اطلاعها واستعمالها وفهم دقائقها وصِيغها وصورها وعبقريتها واكتفوا بما هو متداول بينهم من

النصوص الغربية. واعترف أحد الغلاة منهم وهو بوايي (Boyer) بالجمود والفشل اذ قال: «ان معرفتنا للجزائر العثمانية لم تتم ولم تتقدم منذ 1887 سنة صدور كتاب دي غرامون» ثم يضيف إن كتب هذا المؤرخ وكتب زميله مرسيي (Mercier) اقتصرت على سرد الوقائع التاريخية وقد تجاوزتها الأحداث الآن» [17].

* * *

غير أن ما أبديناه من انتقادات وملاحظات وتحفظات ليس معناه رمي هذا الانتاج الضخم في سلّة المهملات. فهناك قسم لا نستغني عنه أبدا. ففي كتبهم شهادات وأوصاف دقيقة وتواريخ مضبوطة واحصاءات وقوائم الحكّام وتحليلات لحوادث خطيرة وتقارير وتفاصيل لا نجدها في غير هذه الكتب.

والقسم الثاني في حاجة الى تعديل وتجديد. ولم أر ضرورة أسرع من ضرورة مراجعة ما قيل في شأن هذه الفترة لتراكم الأغلاط المقصودة أو غير المقصودة وهيمنة التحيّز. ولا يمكن تحقيق هذا العمل الا بالبحث المتواصل عن المصادر الهامّة عبر البلدان التي كانت لها علاقات مع الجزائر. فدور الأرشيف هناك كنز مكنون بالنسبة للبحرية الجزائرية وحقيقة أمرها ورياس البحر والحرب الاقتصادية التي يسمونها القرصنة ودور الجزائر في مناصرة المسلمين في الأندلس واليونان والاسرى الجزائريين الذين ذهبوا ضحية الغدر والتعصب كما ذهبوا ضحية مؤامرة سكوت المؤرخين الغربيين [18]. والقسم الأخير الحامل للتضليل الرامي الى تشويه الحقائق ومسخ الوقائع فلم نصبح في حاجة إليه.

وبهذه الطريقة ـ طريقة الفحص والبحث والاختيار ـ يعود للحقبة التي بدأت بخير الدين وانتهت بحسين داي شأنها بفضل الدراسات الموضوعية والشاملة سيّما اذا تكاملت المصادر الغربية والمصادر الإسلامية.

(1) راجع :

Turbet Delof, Bibliographie critique du Maghreb dans la littérature française 1532-1715, Alger, SNED 1976.

(2) راجع :

Belhamissi Moulay, Marine et Marins d'Alger à l'époque Ottomane 1518-1830, Thèse d'Etat, Bordeaux 1986.

(3) راجع :

Arvieux (Ch.d'), Mémoires, V, p. 83 et 288 Dan (Le Père), Histoire de Barbarie... p. 299
Shaw, voyages.... p. 214.
Pananti, Relation d'un séjour à Alger, p. 572 Shaler, Esquisse de l'Etat d'Alger.. p. 53.

(4) راجع :

Paul (Chevalier), Mémoires... cité par Charles-Roux, La France et l'Afrique du Nord... p. 145.

(5) راجع : Revue Africaine, 1880, p. 148.

(6) في القرن السابع عشر وحده نذكر:
الغارة على جيجل – 1682 و 1683 و 1688 الغارات على الجزائر العاصمة 1664.

(7) الغارات الاسبانية: 1516 و 1518 و1541 و1775 و1782 و1783 – والغارات الانكليزية 1620 و1816 و1824.
راجع :

Belhamissi Moulay, Marine et Marins d'Alger (Thèse de Doctorat) III, pp. 322 à 339.

(8) من بين الكتب العديدة التي سارت على هذا المنوال:

– Dan, Histoire de Barbarie...
– Laugier de Tassy, Histoire d'Alger...
– Gramaye, Les cruautés exercées sur les chrétiens en la ville d'Argier en Barbarie.
– La Motte (Philémon), Etat des royaumes de Barbarie.., la manière dont les Turcs traitent les esclaves...

(9) راجع : De Grammont, Histoire d'Alger... p, 51.

(10) راجع :

Gaulibert, l'Algérie ancienne et moderne depuis les permiers établissements des carthaginois jusqu'à l'expédition du Général Randon en 1835.
Wahl (M.), L'Algérie (1897).

Filias (A), L'Algérie ancienne et moderne 1875.
Bernard, L' Algérie 1929.
Albertini, Yver, Marçais, Pringeant, L'Afrique du Nord française dans l'histoire 1941.

(11) راجع : Clavssoles, L'Algérie pittoresque, Paris 1843, 2 vol.
خصّص الجزء الأول لقرطاج والوندال والعرب والأتراك، والثاني للحملة الفرنسية ، وحذا حذوه كات (Cat) في كتابه :
Petite histoire de l'Algérie, Tunisie et Maroc, Alger, 1889, 740 pages.
فلم تنل الحقبة العثمانية من هذا الكتاب أكثر من عشرين صفحة.

(12) راجع :

Renaudot (M.) Tableau du royaume de la ville d'Alger et des environs, Paris 1830.

(13) راجع مقالنا : «إرشاد الحيران في أمر الداي شعبان» مجلة الدراسات التاريخية عدد 1986/2 ص 39 – 56.

(14) راجع : Mercier (E), Histoire de l'Afrique septentrionale... III, Paris 1888-1889.

Faure Biquet (Gl), Histoire de l'Afrique septentrionale sous la domination musulmane, Paris 1905.

(15) راجع من بين هذا الصنف: Dubois Fontanelle. Anedated algériennes, Paris 1775.

(16) «Textes jamais précis et laissant une grande part à l'hypothèse».
(17) «Introduction à une histoire intérieure de la Régence d'Alger» Revue Historique, 1966, pp. 297-316.

(18) يوجد تحت الطبع كتاب لنا عنوانه : الأسرى الجزائريون وأوروبا المسيحية 1518 – 1830. وقد اعتمدنا فيه أساسا على أرشيف فرنسا وإيطاليا.